

الضمير

سنكا وابن المقفع وما كتباه في الضمير ومحاسبة النفس

بقلم الاستاذ محمد مهدى علام

أستاذ التربية والفلسفة بدار العلوم وقسم التخصص

تمهيد:

أتينا فيما سبق على معنى الضمير ، ونشأته ، ومراحل ، وسلطانه ، وعلى الندم والتوبة ، وعلى عوائق الضمير ^(١) . وزيد أن نبين هنا ما كتبه كل من سنكا خطيب الرومان ، وابن المقفع فيلسوف العرب ، عن الضمير . وإنما اخترنا الجمع بين هذين الحكيمين لعلاقة قوية بين رأييهما ، حتى ليخيل إلينا أن ابن المقفع قد تأثر بمقالة سنكا ، فيما تأثر به من فلسفة الرومان القديمة .

سنكا ، Seneca . (٣ ق . م - ٦٥ م)

هو فيلسوف أسباني المولد ، روماني المربي ، أظهر ذكاءً خارقاً منذ صغره ، وترى على أبدي طائفة من أمهر الأساتذة ، ورحل إلى بلاد اليونان ومصر ؛ واشتغل بالقانون . ثم عهد إليه بتربية العاهل العانية نيرون ، ولقد أظهر سنكا من الضعف في تنفيف هذا الطاغية الناشئ ما كان له أسوأ الأثر في حياة كل من التلميذ والأستاذ ، بل في حياة الأمة الرومانية نفسها . ولقد اتخذ نيرون مستشاراً له بعد جلوسه على العرش ، فكان له أملوع من بنائه في كتابة الفتاوى التي تبرر أعماله الشاذة من قتل وسفك وغدر . ولم يلبث نيرون أن قلب لمستشاره ظهر الجبن ، فنجاه عن منصبه أولاً ، ثم بحث إليه عن قتله أبعق قتلة .

مقالته في الضمير ^(٢) :

الضمير الحى شهادة بالحياة الفاضلة ، وهو جزاؤها ، وهو الذى يحصن العقل من الخطر حينما يسيطر المرء على عواطفه ، ويتعود الرضا بحالته ، ويعلم أن الموت ليس شراً فى ذاته ، وإنما هو نهاية الحياة .

إن لكل إنسان فى قرارة نفسه قاضياً وشهوداً على كل ما يعمل من خير أو شر ؛ وهؤلاء يوحون إلينا أفكاراً طالية ، ويبدلون لنا نصائح غالية . إن الرجل الذى لا يكثر بالخوف ،

(١) راجع الجزأين الأول والثانى من السنة الثانية لمجلة (المعرفة) شهرى مايو ويونيو سنة ١٩٣٢

(٢) تقلا عن كتاب (The morals of Seneca)

ولا يغمس في الشهوات ، ولا تكرثه الكوارث ، ولا تهيجه المواقف ، بل هو يبتسم لكل شيء من الأشياء التي يتشوف الناس إليها أو يتهيبونها — مثل هذا الرجل لا يسعنا جميعاً إلا أن نعترف بأن في نفسه شعاعاً إلهياً يضيء نواحيها . إن العقل العظيم ، الخير ، الحق ، ليس إلا نوعاً من الأسرار الإلهية التي أودعها الله صورة اللحم والدم

إن كل ما تفعله من خير أو شر داخل في مملكة العقل ، وإن الضمير النقي يمنحنا حالة هادئة لا يعكر صفوها . إن ضمير كل إنسان هو قاضيه ، فهو الذي يقضى له أو عليه ، على شرط أن تفرق بين الضمير والهوى . إن دهاء الناس يرون العقامة والشرف في معدم وفحشهم ، فإذا رأوا رجلاً متواضعاً دمث الأخلاق قلوا إنه غث لا رأى له ، ولكنهم إذا لاحظوا عظمة عقله الممتلئة في أعماله المتناسقة التي لا تضارب فيها ، وأدركوا أن سلمه الظاهري مؤسس على ملأئينة داخلية ، لم يسعهم إلا احترامه والاعجاب به ، فإنه ليس في الوجود شخص لا يرضى عن الفضيلة ، وإن كان قليل من الناس من يتبعونها . نحن نرى الفضيلة ولكننا لا نجروا على التقدم إليها ، والسبب في ذلك أننا نغال في تقدير ما يلزمنا أن نضحى به للوصول إلى الفضيلة .

إن الضمير الحى لا يخشى شهوداً ، أما الضمير المتقل فلىء بالتوسل حتى في ساعة العزلة . إذا نحن لم نعمل إلا ما هو شريف فلتعلم الدنيا جميعها أننا نعمله ، وإذا ارتكبنا ما هو قبيح فإذا يفتننا أنه لم يعلم به أحد ، ما دمتنا نحن نعلم أننا قد اقترفناه ؟ ما أشقى ذلك الرجل الذي يفض من شأن هذا الشاهد ! إن من المترف به أن الرذيلة قد تنجو من العقوبة (عقوبة القانون) ، ولكن لا خلاص لها من يد الضمير (١) فإن حكم الادانة المستتر هو أول عقوبة للمجرم ، وأقصى عقوبة ، حتى إن الخليفة لتردى نفسها ، وإن خوف الانتقام ليقض المضاجع ، حتى مضاجع أولئك الذين نجوا من وخز الضمير .

ولقد كان يكون محزوناً أن يجد الظلم لنفسه نجاة من القانون ، والقاضى ، والقصاص ، لو لم تكن الفطرة قد زودت ضمير المجرمين بأنواع من العذاب والآلام ، فالجرم يعيش في ذعر دائم ، وهو في رقبه أن ينزل به العقاب ، يلاقى أشد عقاب ، وكل من استحق عتاباً رقبه .

وماذا يحدث لو لم تنكشف جريمته ؟ إنه يعاني آلام احتمال كشفها ؛ فبينما لا تذوقان النوم إلا غراً ، لأن الألم يقض مضجعه ، حتى النوم لا يستر جريمته عن نفسه ؛ ثم — ولا يستطيع أن يتحدث عن جرائم الناس من غير أن يذكر جريمته ، في حين أن الضمير النقي ينعم أبداً في ولية دائمة . وليس في مباحج الحياة الدنيا إلا ما هو ناشئ عن ضمير تسيطر على حياة طيبة

(١) من شاء التوسع في بحث هذه النقطة فليرجع إلى كتابنا «فلسفة العقوبة» ص ٢٨، ٢٩

أعمالها ؛ وليس يعنيننا من الصخب والجلبة ما قد يحيط بنا مادامنا نحس بهدوء وامامتنا
في قرارة أنفسنا ، أما إذا كانت عواطفنا طاغية معتدية ففي ذلك ما يكفي لتأريقنا ، حتى
لو كانت الدنيا حولنا هادئة ساكنة ، ألا إنه ليس الجسم المستريح ، ولا الفراش الوثير ،
هو الذي يمنح الراحة عقلاً قلماً

فالسعادة الحقة ليست في إدمان الحر ، ولا في القناطر المقتطعة من الذهب والفضة ،
فالحظ يستطيع أن يمنحني باليمين ما يسبب باليسار ، وما دام ما بيدي لا ينمو ويزيد لي ، فما
أسهل أن أفارقه من غير ألم . (١)

إن من يريد أن يفهم نفسه فهمها حقاً ، يجب أن يدع جانباً أهواله ، وحظوظه ، وكبرياه ،
وليفحص نفسه عارية عن كل ذلك ، غير معتمد في فهم نفسه على ما يخبره به الناس .
ليجاسب كل إنسان نفسه :

إن من المخاطرة أن يسارع المرء إلى اعتقاد أنه فاضل ، فلنختبر قلوبنا ، ولننظر إليها نظر
خص وتحميس ، ولنلاحظها ، ولنفتشها ، فإن المرء أعظم الناس مدحاً وإمراء لنفسه . إن
علينا أن نطلب من أنفسنا حساباً في كل ليلة : لماذا سددت اليوم ؟ أي عاطفة عارضت اليوم ؟
أي إغراء وفتنة قاومت اليوم ؟ أي فضيلة كسبت اليوم ؟

إن ردائنا لتتضاءل إذا هي وقت في كل يوم على منصة الاعتراف . فما أهدأ النوم الذي
يتلو مثل هذه المعركة ! يا لها من سكونية ، وحرية ، وعظمة لذلك العقل الذي يتجسس على
نفسه ، ويقيم من نفسه رقيباً على أعماله وتصرفاته ! إن من عادت في كل ليلة ألا تنطق به
الشعلة حتى أستعيد كل ما صدر مني في خلال اليوم المنصرم من كلمات وأفعال ، من غير أن
أسمح لأمر ما بالافلات من هذا الحساب . ولماذا أخشى شبح أخطائي ما دمت أستطيع أن
أؤنب نفسي وأصفح عنها ؟ (٢) إني أقول لنفسي : لقد كنت مغالياً بعض الغالاة في ذلك
الجدل ، ولقد كان من الممكن أن أوفر على نفسي الادلاء برأيي هذا ، فقد أساء إذ أعلن ، ولم
يعقب خيراً مطلقاً . نعم لقد كان الأمر حقاً ، ولكن ما كل حق يقال دائماً . إني أتمنى لو أنني
كنت قد أمسكت على لساني ، فانه ليس من الصواب أن تجادل المغفلين أو الرؤساء ؛ لقد

(١) وازن بين هذا وقول ابن المقفع « وعلى العاقل ألا يحزن على شيء فانه من الدنيا
أو تولى ، وأن يزل ما أصابه من ذلك ثم اقتطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من
ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب ؛ ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ، ولا يبلغن ذلك
سكراً ولا طغياناً . فان مع السكر النسيان ، ومع الطغيان التهاون . ومن نسي وتهاون خسر » .
(الأدب الصغير ص ١٩ طبعة مدرسة محمد علي الصناعية)

(٢) إن النافار إلى حياة سنكا يظهر له أنه كان يصفح عن نفسه أكثر مما كان ينبغي

أخطأت ، ولسكنى لن أعود إلى ذلك الخطأ.

ولو أن كل رجل نظر في نفسه هذه النظرة لكان هذا خيراً لنا جميعاً . (١) وهل هناك ما هو أكثر انطباقاً على العقل من هذه المراجعة اليومية لحياة لا نملك امتدادها لحظة واحدة ؟ إن قدرنا مقدور ، وإن أول نفس تنفسه في الحياة لأول حركة في طريقنا إلى نهايتها . (٢) إن حياتنا لتختلف صورها اختلافاً عظيماً ، ولكنها كلها تنتهي بنجاعة واحدة . لقد خلقنا لنفقد ولنبي ، لنأمل ولنخاف ، لنضائق أنفسنا ولنضائق غيرنا ، وليس نعمة بلسم يشفى من هذه الفاجعة العامة إلا الفضيلة ، إذ أن أساس النعيم الحق إنما هو في الضمير (٣) .

محمد مهدي علام

(١) وازن بين الفقرات الأخيرة هنا وبين قول ابن المقفع « وعلى العاقل مخاصمة نفسه ، ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والانتابة ، والتشكيل بها . أما المحاسبة فيحاسبها بما لها ، فانه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة ، وما جعل منها في الباطل لم يرجع إلى الحق . فينتبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال ، والشهر إذا اقضى ، واليوم إذا ولى . فينظر فيما أفنى من ذلك ، وما كسب لنفسه ، وما اكتسب عليها ، في أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء ، وجد ، وتذكير للأمر ، وتبكيك للنفس ، وتذليل لها ، حتى تعترف وتذعن . وأما الخصومة فإن من طباع النفس الأمارة بالسوء أن تدعى المآذير فيما بقي ، والأمانى فيما بقي ، فإرد عليها مآذيرها وعلاها وشبهاتها . وأما القضاء فانه يحكم فيما أرادت من ذلك على السبئية بأنها فاضحة مردية ، موبقة ، وللحسنة بأنها زائنة ، منجية ، مبرجة . وأما الانتابة والتشكيل فانه يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ورجاء عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقب نفسه بالتذكر لاسيئات ، والتبشع بها ، والاقشعرار منها ، والحزن لها . فأفضل ذوى الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذاً ، وأقلهم عنها فيه فترة » . (الأدب الصغير ص ١٦)

(٢) هذا معنى دقيق ، وقد تناوله السيد توفيق البكري فأبدع فيه بما لم يترك حاجة لمستريد إذ يقول :

وما أذن القوم لما أقاموا صلاة الجنائز يوم الوفاة

وأذن للعقل يوم الولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة

(٣) وازن بين هذا وقول ابن المقفع : « وعلى العاقل أن يذكر الموت في كل يوم وليلة مراراً ، ذكر آيات به القلوب ، ويقدح الطامح ، فإن في كثرة ذكر الموت عصمة من الأثر ، وأماناً باذن الله من الهلع . وعلى العاقل أن يحصى على نفسه مساوئها في الدين ، وفي الأخلاق ، وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفاً ، من إصلاح ، خلعة ، والخلتين ، والخلال ، في يوم أو الجمعة ، أو الشهر . فكلما أصلح شيئاً محام ، وكلما نظر إلى محو استبشر ، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب » . (الأدب الصغير ص ١٧)